المعاني الثواني عند عبد القاهر الجرجاني

من خلال : الكناية والاستعارة والتمثيل

د. طاهـر القحطانـي

مدرس البلاغة والنقد

جامعة قطر

المعاني الثواني عند عبد القاهر الجرجاني
من خلال : الكناية والاستعارة والتمثيل

د. طاهر القحطاني

مدرس البلاغة والنقد - جامعة قطر

ملخص البحث

يتضمن هذا البحث مفهوم المعاني الثواني عند عبد القادر الجرجاني ، وتطبيقها على الاستعارة والكناية والتمثيل .

وهذه المعاني يقصد بها المعاني البلاغية، وتدرك من خلال المعاني اللغوية أو المعاني الأول كما أسماها عبد القاهر. فإذا قلت مثلاً : رأيت الأسد وأنت لا تريد الرجل الشجاع، فليس في اللفظ معنى ثاني، لأن اللفظ استعمل في معناه الحقيقي. أما إذا أردت الرجل الشجاع، فإن اللفظ بجانب المعنى الحقيقي يدل على معنى ثاني هو الاستعارة .

وما ينطبق على الاستعارة ينطبق على الكناية، فإذا قلت: فلان كثير الرماد وأنت لا تقصد أنه مضياف فليس في اللفظ معنى ثاني. أما إذا أردت أنه مضياف فإن اللفظ يدل على المعنى الثاني الذي يعني الكناية، وهكذا ما ينطبق على الكناية ينطبق على التمثيل.

وعلى هذا فالدلالة الأولى للفظ عند عبد القاهر دلالة لغوية، أما الدلالة الثانية فهي دلالة بلاغية وهي شرط من شروط البلاغة في نظر عبد القاهر وبدونها لا يكون هناك بلاغة.

وقد تم تطبيق المعاني الثواني عبد القاهر أولاً على الكناية بأقسامها، وثانياً على الاستعارة بأنواعها، وثالثاً على التشبيه التمثيلي والاستعارة التمثيلية معاً .

والخلاصة مهما يكن من رأي عبد القاهر في المعاني الثواني، فقد بين البحث أنها ظاهرة بلاغية تشمل الكثير من المباحث البلاغية كالمجاز وأساليب الجمل الخبرية والإنشائية، وأحوال المسند والمسند إليه، وبعض مصطلحات البديع المعنوية واللفظية؛ إلا أن أبرزها عند عبد القاهر تكمن في الكناية والاستعارة والتمثيل.

* * *

Abdul Qader Al Jirjani's Notion of Meaning Through Metaphor, Metonomy and Personification

Dr. Taher Abdul Rahman Al-Qahtani
Department of Arabic
Faculty of Humanities and Social Sciences
University of Qatar

ABSTRACT

This research includes the concept of secondary meanings in Abd Al Qahir Jirjani's work and its application to metaphor, metonymy and simile.

What is meant by secondary meanings or signification is rhetorical meanings as Jirjani put it. For instrance, if you say "I saw a lion", while not referring to a brave man, then there is no secondary

meaning involved here. That is because the word/term is used in its exact, implicit meaning. But if you were referring to "a brave man", then the word, besides its true meaning, connotes a secondary meaning by way of metaphor.

What applies to metaphors applies to metonymy as well. If you say that someone's house has plenty of "ashes" in it, not meaning, however, that the person is "hospitable", them the word does not possess a secondary meaning. However, if you meant that the person in question is "hospitable", the word indicates the secondary meaning. This is metonymy. Thus, what applies to metonymy applies to simile.

According to Al Jirjani, the basic use of a word is linguistic, while its rhetorical use is eloquence. In his view the latter constitutes one of the determining conditions of rhetoric without which there would be no eloquence.

Al Jirjani's secondary meanings are applied first to the sections of metonymy, then to metaphors of all types, and finally to both simile and metaphor.

To sum up, whatsoever Al Jirjan's point was, the research shows that secondary meanings constitute an eloquent phenomenon embracing a wide range of topics like figurative expressions, phraseology, styles of sentence, subject/predicate, and literal and figurative terminology. To Al Jirjani, however, the most prominent of these were metonymy, metaphors and simile.

المقدمـــة :

تمثل المعاني الثواني عند عبدالقاهر الجرجاني المعاني البلاغية التي تدرك وتفهم من خلال الدلالات اللغوية، أو من خلال المعاني الأول.

وتعد تلك المعاني بمثابة اللغة الثانية في الخطاب النقدي العربي الحديث، والتي تكشف لنا عن العلاقة بين النص الأدبي ودلالاته اللغوية.

وقد نص عبدالقاهر على تلك المعاني قائلاً: «فالمعاني المفهومة من أنفس الألفاظ هي المعارض والوشي والحليُ، وأشباه ذلك. والمعاني الثواني التي يومىء إليها بتلك المعاني هي التي تُكْسي تلك المعارض، وتزين بذلك الوشي والحلي»[1].

وتعني المعارض عند عبدالقاهر : المعاني اللغوية، أو المعاني الأول، وهي بمثابة الثياب التي تعرض فيها الجارية الحسناء.

أما المعاني الثواني فهي بمثابة الزينة لتلك الثياب، أو بمثابة الجانب الجمالي لها فمثلاً إذا قلت : «رأيت الأسد»، وأنت لا تريد الرجل الشجاع، فليس في اللفظ معنى الوشي والحلي؛ لأن اللفظ استعمل في معناه الحقيقي.

أما إذا أردت الرجل الشجاع، فإن لفظ الأسد فيه معنى الوشي، والحلي لأنه دل على معنى ثاني، وهو الرجل الشجاع، والذي يمثل المعاني الثواني والاستعارة معًا.

وهكذا يكون الأمر في الكناية، فإذا قلت : فلانٌ كثيرُ الرماد، وأنت لا تقصد أنه مضياف، فليس اللفظ وشي وحلي، لأنه استعمل على الحقيقة، أما إذا أردت المعنى الثاني الدال على الكناية، فإن معنى الوشي والحلي، وفيه المعاني الثواني الدالة على الكناية .

وعلى هذا فإن ألفاظ الكناية، والاستعارة، والتمثيل، تمثل المعاني الثواني عند عبدالقاهر، وما ينطبق على الكناية في مفهوم المعاني الثواني ينطبق على الاستعارة والتمثيل معًا.

وقد عبر الشيخ عبدالقاهر عن هذه المعاني : مرة بالمعاني الثواني - كما شرحناها هنا- ومرة بالدلالة الثانية للفظ، ومرة ثالثة بمعنى المعنى.

أما مفهوم الدلالة الثانية في اللفظ فقد قسم الكلام فيها إلى ضربين : ضربٌ يصل إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وهذا النوع يكون على الحقيقة مثل أن تخبر عن خروج زيد فتقول : خرج زيدٌ.

وضربٌ لا يصل إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكنه «يدلك على معناه الذي يتقضيه موضوعه في اللغة، ثم تخبر بذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض»[٢] .

فالدلالة الأولى دلالة لغوية، والدلالة الثانية دلالة بلاغية تدل على المعنى الثاني. ومدار هذه الدلالة عند عبدالقاهر هي التي تقوم عليها (الكناية والاستعارة والتمثيل).

وأما معنى المعنى فيقول فيه : «فهاهنا عبارة مختصرة، وهي أن تقول المعنى ومعنى المعنى، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر كالذي فسرت لك»[٣] .

ثم يفسر عبدالقاهر تلك المعاني ويشرحها فيقول : «وإذا قد عرفت ذلك، فإذا رأيتهم يجعلون الألفاظ زينة للمعاني وحلية عليها... فاعلم أنهم يصفون كلامًا قد أعطاك المتكلم أغراضه فيه، من طريق معنى المعنى، فكنّى وعرض، ومثّل واستعار، ثم أحسن في ذلك كله وأصاب، ووضع كل شيء منه في موضعه وأصاب به شاكلته، وعمد فيما كنى

به وشبَّه ومثَّل، لما حَسُن مأخذه، ودق مسلكه ولَطُفَت إشارته، وأن المغرضَ وما في معناه ليس هو اللفظ المنطوق به، ولكن معنى اللفظ الذي دللت به على المعنى الثاني، كمعنى قوله : (فإني جبان الكلب، مهزول الفصيل)، الذي هو دليل على أنه مضياف»[٤] .

ويؤكد عبدالقاهر على أن البلاغة، ليست في الألفاظ ولا في معانيها اللغوية بل في المعاني الثواني، وأن من شروط البلاغة أن يكون المعنى الأول دليلاً على المعنى الثاني حيث يقول: «ومن الصفات التي تجدهم يجرونها على اللفظ؛ ثم لا تعترضك شبهة في أنها ليست له ولكن لمعناه قولهم : لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، ولا يكون لفظه أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك، فهذا مما لا يشك العاقل، في أنه يرجع إلى دلالة المعنى على المعنى وأنه لا يتصور أن يراد به دلالة اللفظ على معناه الذي وضع له في اللغة.

وجملة الأمر إنه إنما يتصور أن يكون المعنى أسرع فهمًا منه لمعنى آخر، إذا كان ذلك مما يدرك بالفكر، وإذا كان مما يتجدد له العلم به عند سمعه للكلام، وذلك محال في دلالة الألفاظ اللغوية، لأن طريق معرفتها التوقيف والتقدم بالتعريف.

وإذا كان ذلك كذلك ، عُلِمَ بالضرورة أن مصرف ذلك إلى دلالة المعاني على المعاني، وأنهم أرادوا أن من شروط البلاغة أن يكون المعنى الأول الذي تجعله دليلاً على المعنى الثاني، ووسيطًا بينك وبينه، متمكنًا في دلالته مستقلا بواسطته، ويسفر بينك وبينه أحسن سفارة ويشير لك إليه أبين إشارة، حتى يخيل إليك أنك فهمته من اللفظ وذلك لقلة الكلفة فيه عليك، وسرعة وصوله إليك فكان من الكناية مثل قوله :

لا أُمْتِعُ العُوَذ(*) بالفِصَالِ ولا أُبتاعُ إلاَّ قَرِيبةَ الأجَلِ

(*) «والعوذ» جمع عائذ وهي الناقة التي ولت حديثاً ؛ و«الفصال» جمع فيصل وهو ولد الناقة .

«ومن الاستعارة مثل قوله :

وصدرٍ أراحَ الليلُ عازبَ هَمِّهِ تضاعفَ فيهِ الحزنُ من كُلِّ جَانِبِ

وفي التمثيل مثل قوله :

لا أذودُ الطَّيْرَ عن شَجَرٍ قد بَلَوتُ المُرَّ مِنْ ثَمَرِهْ».(٥)

ويفهم من كلام عبدالقاهر هنا أن المعانى الثواني هي المعاني البلاغية المتجددة التي تدرك عن طريق عمل الفكر والعقل والخيال، وهي تشمل الكناية والاستعارة والتمثيل.

وقد ربط عبدالقاهر بين هذه المصطلحات الثلاثة فلا يذكر واحدة منها إلا وذكرها معًا، وذلك في أكثر من موضع من كتابه دلائل الإعجاز، على اعتبار أنها جميعًا تعبر عن مدلول بلاغي واحد، يتمثل في المعاني الثواني.

والرابط بينها أن كل واحدة منها لها مدلولان، مدلول ظاهري يتمثل في المعاني اللغوية ومدلول باطني يتمثل في المعاني الخفية التي هي المعاني البلاغية أو المعاني الثواني.

ويمكننا القول بعد هذا : إن المعاني الثواني تمثل جوهر البلاغة وخلاصتها، وهي ظاهرة تشمل الكثير من المباحث، والأساليب البلاغية ومباحثها، وبخاصة ما يتعلق بعلم المعاني، لكنها أكثر وضوحًا كما يبدو في الاستعارة، والكناية، والتمثيل، مما جعل عبدالقاهر يقصر المعاني الثواني عليها.

وفي ضوء ما تقدم، يهدف هذا البحث إلى دراسة المعاني الثواني عند عبدالقاهر الجرجاني دراسة بلاغية، من خلال : الكناية والاستعارة والتمثيل، ومن ثم الإجابة عن الآتي :

ما المقصود بالمعاني الثواني ؟ وما دورها في تشكيل الصورة البلاغية والجمالية ؟ ولماذا قصرها عبدالقاهر على الكناية والاستعارة والتمثيل؟.

أولاً : المعاني الثواني من خلال الكناية :

١ - مفهوم الكناية وأهميتها :

عَرَّف عبدالقاهر الكناية تعريفًا لغويًا وبلاغيًا ؛ يدل على فهم عميق للكناية، فقال : «المراد بالكناية هاهنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومىء به إليه ويجعله دليلاً عليه؛ مثال ذلك قوله : «هو طويل النجاد» يريدون طويل القامة «وكثير رماد القدر» يعنون كثير القرى وفي المرأة «نؤوم الضحى» والمراد أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها؛ فقد أرادوا في هذا كله كما ترى معنى لم يذكروه بلفظه الخاص به ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود ... أفلا ترى أن القامة إذا طالت الطال النجاد، وإذا كثر القرى كثر رماد القدر، وإذا كانت المرأة المترفة لها من يكفيها أمرها، ردف ذلك أن تنام الضحى»[٦].

وتعريف عبدالقاهر للكناية هنا يدل على عمق بلاغي وذوق جمالي؛ حيث بين لنا مفهوم الكناية ومدلولها المتمثل في المدلول اللغوي الأول، والمدلول البلاغي الثاني. ومع ذلك اعتبر العلوي تعريف عبدالقاهر هذا فاسداً لعدم وجود الدقة فيه، وذلك لعدة أمور، ثم عرفها قائلاً: «هي اللفظ الدال على معنيين مختلفين؛ حقيقة ومجاز من غير واسطة»[٧].

والكناية في اللغة :«أن تتكلم بشيء(٨)، وتريد غيره وهي ، مصدر كنيت بكذا عن كذا... إذا تركت التصريح به» .

وفي الاصطلاح «لفظ أريد به لازم معناه، مع جواز إرادته معه»[٩].

وقد تحدث النقاد والبلاغيون عن الكناية قبل عبدالقاهر، ومنهم قُدامةَ بن جعفر حيث ذكرها باسم «الإرداف» في باب ائتلاف اللفظ والمعنى «وهو أن يريد الشاعر دلالة على

معنى من المعاني، فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له فإذا دل عن التابع أبان عن المتبوع، بمنزلة قول الشاعر :

بعيدةُ مَهْوَى القُرطِ إمَّا لنَوْفَلٍ أبُوهَا وإمَّا عَبْدَ شَمسٍ وَهَاشِمِ[١٠]

وخلاصة مفهوم الكناية عند العلوي يمكن حمله على المجاز ويمكن حمله على الحقيقة[١١].

ولسنا هنا في سبيل رصد تطور مصطلح الكناية قبل عبدالقاهر أو بعده، لكن الذي يهمنا هو معانيها الثواني التي تعني المعاني البلاغية.

ولقد استفاد البلاغيون بعد عبدالقاهر من تعريفه للكناية، ومن أمثلته لها، فحددوا مصطلحها، وشرحوا أمثلتها وجعلوها في ثلاثة أقسام هي :

١ - كناية عن موصوف .

٢ - كناية عن صفة .

٣ - كناية عن نسبة .

وكان في مقدمتهم السكاكي الذي حدد مفهوم الكناية وأقسامها، وشرح أمثلتها، بما في ذلك : التعرض والرمز والإشارة، وذلك في ضوء ما نص عليه عبدالقاهر ولم يضف غير شواهد الكناية عن موصوف[١٢].

وجاء بعد ذلك الخطيب القزويني، وشراح التلخيص، إلا أنهم لم يخرجوا عن منهج السكاكي سواء في الكناية أو في غيرها[١٣].

وقد اقتصرت جهودهم على الشرح والتعليل لآراء السكاكي دون أن يضيفوا جديداً يذكر إلى الكناية أو إلى البحث البلاغي .

وأما أهمية الكناية فهي تعد عند عبدالقاهر من أهم الفنون البلاغية، وقد وصفها بأنها : «فن من القول دقيق المسلك ، لطيف المأخذ »[١٤].

ومن ميزاتها أنها تقدم المعنى البلاغي مع الدليل، وتبرز المعقول في صورة المحسوس، ويعبر بها عما لا يليق التعبير به.

أضف إلى ذلك فإنها تزيد الألفاظ جمالاً وتكسب المعاني سحراً ورونقًا ، بخلاف الاستعارة، فإنها تقوم على المشابهة وعلى حذف أحد طرفي التشبيه.

ولقد أجمع النقاد في نظر عبدالقاهر بأن الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح.

فإذا قلت: «هو طويل النجاد كان أبهى لمعناك، وأنبل من أن تدع الكناية وتصرح بالذي تريد »[١٥].

ولهذا قدمها على الاستعارة وعلى التمثيل وذلك لعدولها عن الظاهر إلى المعاني الثواني كقولك: «هو كثير رماد القدر» كان له حظ من القبول لا يكون إذا قلت : «هو كثير القرى والضيافة »[١٦].

أضف إلى ذلك فإن الأديب إذا استعمل الكناية في نظر عبدالقاهر «بدت عليها محاسن تملأ الطرف، ودقائق تعجز الوصف، ورأيت هناك شعراً شاعراً ، وسحراً ساحراً ، وبلاغة لا يكمل لها إلا الشاعر المفْلِق والخطيب المصقع »[١٧].

ويأتي الاهتمام بالكناية من قبل البلاغيين والنقاد؛ لكثرة ورودها في القرآن والسنة وكلام العرب وهو ما يؤكده صاحب البرهان في علوم القرآن : «إن العرب تعدها من البراعة والبلاغة، وهي عندهم أبلغ من التصريح »[١٨].

وقد ذكر صاحب البرهان عشر أساليب للكناية في ضوء أساليب القرآن الكريم وتتخلص على النحو الآتي :

١ - التنبيه على عظم القدرة، كقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذِّي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ كناية عن آدم . (آية ١٨٩ من سُورَةِ الأعراف)

٢ - فطنة المخاطب، كقوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ ، أي زيد، ﴿ وَلَكِنْ رَّسُولَ اللَّهِ ﴾. (آية ٤٠ من سُورَةِ الأحْزَابِ).

٣ - ترك اللفظ إلى ما هو أجمل منه ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ فكنى بالنعجة عن المرأة، كعادة العرب تكني بالنعجة عن المرأة . (آية ٢٣ من سُورَةِ ص).

٤ - أن يفحش ذكر الكلام في السمع فيكنى عنه بما لا ينبو عنه الطبع، فقال تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ لاَ تُوَاعِدُوهُنَّ سِراً ﴾ فكنى عن الجماع بالسر (آية ٢٣٥ من سُورَةِ البَقَرَةِ) ، وقال تعالى :﴿ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ ﴾ فكنى بالمباشرة عن الجماع ، لما فيه من التقاء البشرتين . (آية ١٨٧ من سُورَةِ البَقَرَةِ).

٥ - تحسين اللفظ، كقوله تعالى : ﴿ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ كناية عن حرائر النساء بالبيض. (آية ١٨ مِنْ سُورَةِ الصافات).

٦ - لقصد البلاغة، كقوله تعالى : ﴿أَوَ مَن يُنَشَّؤُاْ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾. (آية ٤٩ مِنْ سُورَةِ الزّخْرُفِ)

فإنه سبحانه كنى عن النساء بأنهن ينشأن في الترفُه ، والتزيُّن والتشاغل، عن النظر في الأمور ، ودقيق المعاني، والمراد نفي الأنوثة عن الملائكة.

٧ - لقصد المبالغة في التشنيع ، كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾. (آية ٦٤ مِنْ سُورَةِ المَائِدَةِ).

٨ - التنبيه على المصير ، كقوله تعالى : ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ أي نمّامة ومصيرها حطب لجنهم. (آية ٤ مِنْ سُورَةِ المسد).

٩ - لقصد الاختصار، كقوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ أي : فإن لم تأتوا بسورة من مثله، ولن تأتوا . (آية ٢٤ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ).

١٠- أن تكون الجملة على خلاف الظاهر، كقوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كناية عن المُلك، كما نص على ذلك الزمخشري، لأن الاستواء على السرير لا يحصل إلا مع المُلك.[١٩] (آية ٥ مِنْ سُورَةِ طَهَ)

٢ - المعاني الثواني في ضوء أسلوب الكناية :

تمثل المعاني الثواني في الكناية، المعاني البلاغية لها، وبدونها لا توجد كناية عند عبدالقاهر.

وقد سبق أن ذكرنا أن عبدالقاهر عبر عن تلك المعاني : مرة بالمعاني الثواني، ومرة ثانية بالدلالة الثانية للمعنى، ومرة ثالثة بمعنى المعنى؛ وهذه المعاني تدرك من خلال المعاني الأول، أو المعاني اللغوية.

وتفسيرها عند عبدالقاهر أن لفظ الكناية له معنيان:

معنى أول، وهو المعنى اللغوي، إذا استعمله المخاطب في المعنى الحقيقي، ومعنى ثاني إذا استعمله المخاطب في المعنى الكنائي.

ومن ذلك قوله : «أو لا ترى أنك إذا قلت : هو كثير رماد القدر، أو قلت في المرأة: نؤوم الضحى، فإنك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني، من مجرد اللفظ، ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال، معنى ثاني: هو غرضك لمعرفتك من (كثير رماد القدر) أنه مضياف، ومن (طويل النجاد) أنه طويل القامة، ومن (نؤوم الضحى في المرأة) أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها»[٢٠].

وعلى هذا فالكناية عند عبدالقاهر تكون في المعنى، وليس في اللفظ، لأنه : «لا يكنى باللفظ عن اللفظ وأنه إنما يكنى بالمعنى عن المعنى... ثم اللفظ يكون تبع المعنى»[٢١].

والسؤال الذي يمكن أن يطرح هنا هو : كيف نتعرف على الكناية ، أهل من خلال الألفاظ: أم من خلال المعاني؟!

والإجابة كما أشار إلى ذلك عبدالقاهر تكون عن طريق المعاني المدركة بالعقل، وليس عن طريق اللفظ فيقول : «وإذا قد عرفت هذه الجملة، فينبغي أن تنظر إلى هذه المعاني واحداً واحداً وتعرف محصولها وحقائقها، وأن تنظر أولاً إلى الكناية، وإذا نظرت إليها وجدت حقيقتها، ومحصول أمرها أنها إثبات لمعنى أنت تعرف ذلك المعنى من طريق المعقول دون طريق اللفظ، ألا ترى أنك لما نظرت إلى قولهم : هو كثير رماد القدر، وعرفت منه أنهم أرادوا أنه كثير القرى والضيافة، لم تعرف ذلك من اللفظ، ولكن عرفته بأن رجعت إلى نفسك فقلت : إنه كلام قد جاء عنهم في المدح، ولا معنى للمدح بكثرة الرماد»[٢٢].

ويمكننا القول بعد هذا إن المعاني العقلية تعني المعاني الثواني التي تقوم عليها الكناية، والتي تميزها عن الحقيقة، وتسمو بقيمتها البلاغية.

ولهذا يصفها عبدالقاهر قائلاً :«إذا قلت : هو طويل النجاد ، وهو جم الرماد ، كان أبهى لمعناك، وأنبل من أن تدع الكناية ، وتصرح بالذي تريد »[٢٣].

ويفسر هذا عبدالقاهر فيقول : «ليس المعنى إذا قلنا إن الكناية أبلغ من التصريح أنك لما كنيت عن المعنى، زدت في ذاته، بل المعنى أنك زدت في إثباته، فجعلته أبلغ وآكد وأشد، فليست المزيه في قولهم (جم الرماد) أنه دل على قرى أكثر، بل إنك أثبت له القرى الكثير من وجه هو أبلغ، وأوجبته إيجابًا هو أشد، وادعيته دعوى أنت بها أنطق، وبصحبتها أوثق »[٢٤].

ويشرح عبدالقاهر أسباب ميزة الكناية فيقول : «فإن السبب، في أن كان للإثبات بها مزية لا تكون للتصريح... أن كل عاقل يعلم إذا رجع إلى نفسه، أن إثبات دليلها أبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها ، فتثبتها هكذا ساذجًا غفلاً، وذلك أنك لا تدعي مشاهد الصفة ودليلها ، إلا والأمر ظاهر معروف، وبحيث لا يشك فيه ولا يظن بالمخبر التجوز والغلط »[٢٥].

وعلى الرغم من اهتمام عبدالقاهر بالكناية، وبمعانيها الثواني إلا أنه لم يهتم بتقسيماتها البلاغية، كما فعل البلاغيون المتأخرون من بعده، بل اهتم ببلاغة معانيها وبقوة تأثيرها ، وبإخفاء صفتها عن التصريح ، فيقول : «وكما أن الصفة إذا لم تأتك مصرحًا بذكرها مكشوفًا عن وجهها... كان ذلك أفخم لشأنها ، ألطف لمكانها . كذلك إثباتك الصفة للشيء، تُثبتها له إذا لم تُلحقه إلى السامع صريحًا وجئت إليه من جانب : التعريض والكناية والرمز والإشارة، كان له من الفضل والمزية، ومن الحسن والرونق، ما لا يقل قليله، ولا يجهل موضع الفضيلة فيه »[٢٦] .

وقد فسر عبدالقاهر هذا الكلام وطبقه على كثير من شواهد الكناية ومنها قول زياد الأعجمي في مدح ابن الحشرج :

إن السَّماحةَ والمروءةَ والنَّدىَ فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ على ابنِ الْحَشْرِجِ

هذا البيت من شواهد الكناية عن نسبة، عند السكاكي والقزويني وجمهور البلاغيين بعدهما.

وقد نسب الشاعر السماحة والمروءة والندى إلى القبة المضروبة على ابن الحشرج، ويلزم من نسبتها إلى القبة نسبتها إلى صاحب القبة. والشاعر هنا لم ينسبها إلى ابن الحشرج مباشرة، بل نسبها إلى القبة المضروبة عليه.

وبعد أن بين عبد القاهر ميزة عدول الشاعر عن نسبة تلك الصفات إلى الممدوح مباشر خلص إلى القول : «فخرج كلامه بذلك إلى ما خرج إليه من الجزاله، وظهر فيه ما أنت ترى من الفخامة، ولو أنه أسقط هذه الوساطة... لما كان إلا كلامًا غفلاً وحديثًا ساذجًا»[٢٧].

وهذه هي ميزة المعاني الثواني في صفات الكناية مما جعلها أبلغ من التصريح بها . ولذلك ضرب لنا عبد القاهر بشواهد كثيرة على أساليب الكناية، ومنها قول الشاعر :

وما بَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فَإِنِّي جَبَانُ الْكَلْبِ مهزولُ الْفَصِيْلِ

والبيت من شواهد الكناية، عن صفة عند البلاغيين، فقد وصف الشاعر نفسه بالقرى والضيافة من غير أن يصرح بالصفة مباشرة.

فكنى عن ذلك بجبن الكلب، عن نباحه في وجه الضيف، وهزال الفصيل ؛ عن ذبح أمه للضيف، والفصيل ولد الناقة .

ومن شواهد الرمز والإشارة عند عبدالقاهر قول أبي تمام :

أبينُ فَمَا يَزُرنَ سِوَى كريمٍ وَحَسْبُكَ أَنْ يَزُرْنَ أَبَا سَعِيدِ

فالبيت أفاد أن أبا سعيد كريم .

وقال البحتري :

أَوَ مَا رأيتَ الْمجدَ أَلْقَى رَحْلَهُ في آلِ طَلْحَةَ ثُمَّ لَمْ يَتَحَوَّلِ

فقد «جعل المجد والممدوح في مكان ، وجعله يكون حيث يكون». وهنا كناية عن إثبات المجد لآل طلحة[٢٨].

والذي يلحظ هنا أن عبدالقاهر قد ذكر لنا شواهد كثيرة عن الصفة والنسبة والتعريض والرمزة والإشارة، مكنت السكاكي ومن بعده القزويني من تقعيد وتقنين أساليب الكناية في ضوء هذه الشواهد[٢٩].

ومما يلفت الانتباه هنا أيضًا ، أن عبدالقاهر بعد مناقشته لأساليب الكناية، قد نبه إلى أن شعب الكناية، والتعريض والرمز والإشارة ليس لها حد ولا نهاية، فقال : «ليس لشعب هذا الأصل وفروعه وأمثلته، وصوره وطرقه، ومسالكه حد ولا نهاية »[٣٠].

وهذا يدل على أن الكناية لم تنل حقها في البحث والدراسة من البلاغيين، كما نالت المباحث البلاغية الأخرى، حتى أن عبدالقاهر نفسه لم يشر إليها في كتابه «أسرار البلاغة»، لكنه اهتم بها في كتابه «دلائل الإعجاز» ، وقدمها على الاستعارة والتمثيل وذكرها في أكثر من موضع في كتابه «دلائل الإعجاز».

ومما يحمد لعبدالقاهر أنه جعل الباب مفتوحًا أمام البلاغيين من بعده، سواء في الكناية أم في غيرها ، من المباحث والمصطلحات البلاغية الأخرى.

ثانيًا : المعاني الثواني من خلال الاستعارة عند عبدالقاهر :

١ - مفهوم الاستعارة وأهميتها :

تمثل المعاني الثواني عند عبدالقاهر الجرجاني الصورة البلاغية في الاستعارة وبدونها لا تكون هناك استعارة.

وقد عرّفها في كتابه «دلائل الإعجاز» قائلاً : «الاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء، فتدع أن تفصح بالتشبيه، وتظهره وتجيء إلى اسم المشبه به، فتعيره المشبه وتجريه عليه، تريد أن تقول : رأيت رجلاً هو كالأسد في شجاعته وقوة بطشه سواء ، فتدع ذلك وتقول رأيت أسداً »[٣١].

وهذا التعريف للاستعارة يمثل مرحلة النضج البلاغي في عصر عبد القاهر. أما الاستعارة في اللغة فهي من العارية، وهي نقل الشيء من شخص إلى آخر، لكي تصبح من خصائص المعار إليه[٣٢].

وفي اصطلاح البلاغيين «لفظٌ استعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة» [٣٣] . ومهما يكن من تعريف الاستعارة عند عبدالقاهر، فإنه في أسرار البلاغة قد جعلها في قسمين : أحدهما الاستعارة المفيدة، والآخر الاستعارة غير المفيدة.

أما الاستعارة غير المفيدة فهي خاصة بالأسماء «كوضعهم للعضو الواحد أسام كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان، نحو وضع الشفة للإنسان، والمشفر للبعير والجحفلة للفرس»[٣٤].

ثم بين أن استعمال تلك الأسماء في غير ما وضعت لها لا تفيد من الناحية البلاغية، كاستعمال الشفة مثلا : في الفرس لأنها موضوعة في الأصل للإنسان.

ولذلك رجع عنها عبدالقاهر واعتبرها من المجاز فقال : «اعلم أن الواجب كان أن لا أعد وضع الشفة موضع الجحفلة، والجحفلة في مكان المشفر ونظائره، التي قدمت ذكرها في الاستعارة... ولكن رأيتهم قد خلطوه بالاستعارات وعدّوه معدها، فكرهت التشدد في الخلاف... ونبهت على ضعف أمره، بأن سميته استعارة غير مفيدة»[٣٥].

ويبدو أن مفهوم الاستعارة والمجاز قبل عبدالقاهر كانا متداخلين معا، بل الكثير من المصطلحات البلاغية في عصره كانت مضطربة في مدلولها، وفي معانيها مما أثر على عبدالقاهر عند تأليفه لكتابه «أسرار البلاغة» .

أما الاستعارة المفيدة عنده فقد حصرها في الاستعارتين [٣٦]: التصريحية والمكنية من غير أن ينص على مصطلحيهما، ولكنه ذكر أنها على ضربين :

الأول : مثل «رأيت أسدا» .

الثاني : كقول لبيد :

وَغَداةِ ريحٍ قد كَشَفْتُ وَقِرَّةٍ إذْ أُصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا

ثم فسر ذلك في كتابه دلائل الإعجاز قائلاً : «إذا قلت (رأيت أسداً) فقد ادعيت في إنسان أنه أسد وجعلته إياه، ولا يكون الإنسان أسداً ، وإذا قلت :

... إذْ أُصْبَحَتْ بيدِ الشَّمالِ زِمَامُهَا ...

فقد ادعيت أن للشمال يداً ، ومعلوم أنه لا يكون للريح يدٌ» [٣٧].

ثم خلص إلى القول بعد مناقشة طويلة في كتابه أسرار البلاغة إن : الضرب الأول يمكن إرجاعه إلى التشبيه بسهولة كقولك : «رأيت أسداً» والمعنى رأيت رجلاً كالأسد، فالمشبه به موجود هنا وهو الأسد، والمحذوف المشبه، وهو الرجل الشجاع.

أما الثاني فلا يمكن إرجاعه إلى التشبيه : «إلا بعد أن تخرق إليه ستراً ، وتعمل تأملاً وفكراً» [٣٨] . كقول لبيد السابق. فالضرب الأول استعارة تصريحية ، والضرب الثاني استعارة مكنية .

وقد اصطلح البلاغيون بعد عبدالقاهر على أن الاستعارة تقوم على ثلاثة أركان هي: [٣٩]

١- المشبه وهو المستعار منه .
٢- المشبه وهو المستعار له .
٣- المستعاروهو اللفظ المنقول .

فإذا قلنا مثلاً : رأيت أسداً يضحك، فالأسد المشبه به، والمشبه الرجل الشجاع، والمستعار هو لفظ الأسد.

والاستعارة في اصطلاح البلاغيين لها تعريفات كثيرة لا تخرج عن قولهم : «هي الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة مع قرينة مانعة من إرادة معناها»[٤٠].

ومهما قيل عن مفهوم الاستعارة عند عبدالقاهر؛ فقد رسم لنا لوحة فنية لما تشتمل عليه الاستعارة المفيدة، من أساليب بلاغية، وتعبيرية وجمالية لا يستطيع القارىء الإحاطة بمدلولها مما يدل على أهميتها، ومكانتها في توصيل المعاني حيث يقول فيها : «اعلم أن الاستعارة في الحقيقة هي هذا الضرب دون الأول، وهي أمدّ ميدانًا، وأشد افتتانًا، وأكثر جريانًا، وأعجب حسنًا وإحساناً، وأوسع سعة، وأبعد غوراً ، وأذهب نجداً في الصناعة... من أن تجمع شُعبها وشعوبها، وتحصر فنونها، وضروبها... وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد حتى تراها مكررة في مواضع،ولها في كل واحدة من تلك المواضع شأن مفرد، وشرف منفرد، وفضيلة مرموقة، ومن خصائصها التي تذكر بها، وهي عنوان مناقبها؛ أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدّرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعًا من الثمر، وإذا تأملت أقسام الصنعة التي بها يكون الكلام في حد البلاغة ومعها يستحق وصف البراعة فإنك لترى بها الجماد حيًا ناطقًا والأعجم فصيحًا، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفية بادية جلية، وإذا نظرت في أمر المقاييس وجدتها ولا ناصر لها أعز منها، ولا رونق لها ما لم تزينها... وهذه إشارت وتلويحات في بدائعها، وإنما تنجلي الغرض منها ... إذا تكلم عن التفاصيل، وأفرد كل فن بالتمثيل»[٤١].

والحق أن هذه الأوصاف للاستعارة عند عبد القاهر قد جمعت محاسن البلاغة كلها .

٢ - المعاني الثواني في الاستعارة :

اهتم عبدالقاهر في كتابه «أسرار البلاغة» بأصول الكلام ومحاسنه، وجماله، وجعله في التشبيه والتمثيل والاستعارة، باعتبارها أقطابًا تدور عليها المعاني حيث يقول : «وأول ذلك وأولاه وأحقه بأن يستوفيه النظر، ويتقصاها القول على التشبيه والتمثيل، والاستعارة، فإن هذه أصول كبيرة، كان جل محاسن الكلام - إن لم نقل كلها - متفرعة عنها وراجعة إليها، وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها، وأقطار تحيط بها من جهاتها، ولا يقنع طالب التحقيق أن يقتصر فيها على أمثلة تذكر، ونظائر تعد»[٤٢].

أما في دلائل الإعجاز فقد اهتم كثيراً بالمعاني الثواني التي تكمن في : الكناية، والاستعارة، والتمثيل - ويعني بالتمثيل الاستعارة التمثيلية - .

وقد سبق أن أوضحنا أن المعاني الثواني تمثل الاستعارة وبدونها لاتوجد استعارة، بل إن المعاني الثواني هي الاستعارة بعينها، أضف إلى ذلك فإن عبدالقاهر قد ربط هذه المصطلحات بالمعاني الثواني حيث ذكرها معًا في أكثر من موضع من كتابه «دلائل الإعجاز» . ومن ذلك قوله : «وإذا قد عرفت هذا في الكناية ، فالاستعارة في هذه القضية... تثبت بها معنى، لا يعرف السامع ذلك المعنى من اللفظ، ولكنه يعرفه من معنى اللفظ.

بيان هذا أنَّا نعلم أنك لا تقول : رأيت أسداً ، إلا وغرضك أن تثبت للرجل أنه مساوٍ للأسد في شجاعته وجرأته وشدة بطشه وإقدامه... ثم تعلم أن السامع إذا عقل هذا المعنى، لم يعقله من لفظ أسد، ولكنه يعقله من معناه، وهو أنه يعلم أنه لا معنى لجعله

أسداً مع العلم بأنه رجل؛ إلا أنك أردت أنه بلغ من شدة مشابهته للأسد ومساواته إياه، مبلغًا يتوهم معه أنه أسد بالحقيقة، فاعرف هذه الجملة وأحسن تأملها »[٤٣].

ويؤكد عبدالقاهر أن العارية في الاستعارة تكون في المعنى قبل اللفظ فيقول : «واعلم أنك إذا قلت : رأيت أسداً وأنت تريد التشبيه كنت نقلت لفظ أسد عما وضعه له في اللغة واستعملته في معنى غير معناه، وأنه إنما يعار اللفظ من بعد أن يعار المعنى، وأنه لا يشرك في اسم - الأسد - إلا من بعد أن يدخل في جنس الأسد »[٤٣].

إذ لا يستعار اللفظ مجرداً عن المعنى، ولكن يستعار المعنى، ثم اللفظ يكون تبعًا للمعنى. ومن أجل ذلك يقول عبد القاهر : «رأيت العقلاء كلهم يثبتون القول بأن من شأن الاستعارة أن تكون أبداً أبلغ من الحقيقة »[٤٥].

ولهذا لا يُطلق اسم الأسد عند عبدالقاهر على الرجل الجريء، إلا من بعد أن تدخله في جنس الأسود فيقول : «وأن قولنا استعير له اسم الأسد إشارة إلى أنه استعير له معناه، وأنه جعله إياه »[٤٦].

ويوضح عبدالقاهر أن معرفة الاستعارة تقوم على ادعاء معنى الاسم وهو الأسد كما في قولك : «رأيت أسداً حيث لم تعقل ذلك من لفظ أسد، ولكن من ادعائه معنى الأسد »[٤٧]. أضف إلى ذلك فإن المعنى عند عبدالقاهر يدرك بالعقل وليس باللفظ فيقول : « ثبت بذلك أن الاستعارة كالكناية ، في أنك تعرف المعنى فيها من طريق المعقول دون طريق اللفظ، وإذ قد عرفت أن طريق العلم بالمعنى في الاستعارة والكناية معًا ، المعقول، فاعلم أن حكم التمثيل في ذلك حكمهما ، بل الأمر في التمثيل أظهر »[٤٨].

ومن هنا ينتهي عبدالقاهر إلى القول : «فقد زال الشك وارتفع في أن طريق العلم بما يراد إثباته والخبر به هذه الأجناس الثلاثة التي هي : الكناية ، والاستعارة ، والتمثيل،

هو المعقول دون اللفظ من حيث يكون القصد بالإثبات فيها إلى معنى ليس هو اللفظ، ولكنه معنى يستدل بمعنى اللفظ عليه، ويستنبط منه كنحو .. هو كثير رماد القدر إلى كثرة القرى، وأنت لا تعرف ذلك من هذا اللفظ الذي تسمعه، ولكنك تعرفه بأن تستدل عليه بمعناه على ما مضى من الشرح فيه»[٤٩].

والحق بعد هذا أن الاستعارة في مدلولها وفي معانيها عند عبدالقاهر تمثل المعاني الثواني، وبغيرها فإن اللفظ يكون استعماله على الحقيقة، وليس فيه استعارة .

٣ - بدائع الاستعارة وجمالها عند عبدالقاهر :

قسم عبدالقاهر الاستعارة - تقسيمًا بديعيًا جماليًا يرتبط بأسلوب الاستعارة وأدائها- إلى استعارتين :

الأولى : الاستعارة العامية المبتذلة كقولك : «رأيت أسداً ، ووردتُ بحراً ، ولقيتُ بدراً » وهذا الاستعارة كما ذكرنا تصريحيه، ويمكن إرجاعها إلى التشبيه بسهولة ؛ لأنها في متناول الخاصة والعامة.

الثانية : فهي الخاصية النادرة التي لا يقولها إلا البلغاء والأدباء كقول كثير عزة :

أَخَذْنَا بأطرافِ الأحاديثِ بَيْنَنَا وسألتْ بأعنَاقِ المَطِيِّ الأباطِحُ

«أراد الشاعر هنا أن المطي سارت سيراً حثيثًا في غاية السرعة في لين وسهولة».

فهذه الاستعارة هنا عامية، لكن كثير عزة تصرف فيها حتى جعلها غريبة ؛ وذلك بإسناد الفعل إلى الأباطح، وتعديته بالباء، مع أنه استعار السيلان للسير الحثيث، السلس في كل من المشبه والمشبه به.

وهذا ليس غريبًا، ولكن الغرابة في إسناد الفعل سال إلى الأباطح وتعديته بالباء. ومن ذلك قول ابن المعتز :

سَالتْ عليهِ شِعَابُ الحَيِّ حينَ دَعَا أنصَارَهُ بِوُجُوهٍ كَالدَّنَانِيرِ

«أراد أنه مطاع في الحي، وأنصاره يسرعون إلى نصرته في الحرب كأنهم سيول تجيء من هنا وهناك حتى يغص بها الوادي ويطفح منها»[٥٠].

والشاهد في البيت استعارة السيلان للسير الحثيث السلس، كالبيت السابق، وهذا ليس غريبًا، ولكن الغرابة في إسناد السيلان إلى شعاب الحي، وتعديته بعلى والباء. ومن بدائع الاستعارة هنا عند عبدالقاهر أنها راجعة إلى النظم ومقتضياته إذ أنك «ترى هذه الاستعارة على لطفها وغرابتها، وإنما تم لها الحسن وانتهى بما توخي في وضع الكلام من التقديم والتأخير، وتجدها قد ملحت ولطفت، بمعاونة ذلك ومؤازرته لها»[٥١].

ومن بدائع الاستعارة أيضًا عند عبدالقاهر «أنك ترى اللفظة المستعارة قد استعيرت في عدة مواضع، ثم ترى لها في بعض ذلك ملاحة لا تجدها في الباقي مثال ذلك :

لا يَطْمَعُ المرءُ أنْ يَجْتَابَ لُجنَّهُ بِالْقَولِ مَا لَمْ يَكُنْ جِسْراً لَهُ الْعَمَلُ

وقولـه :

بَصُرْتَ بالرَّاحَةِ العُظْمَى فَلَمْ تَرَهَا تُنَالُ إلاَّ على جِسْرٍ من التَّعَبِ

فترى لها في الثاني حسنا، لا تراه في الأول»[٥٢]. وهكذا كان بديع الاستعارة وجمالها عند عبدالقاهر.

ثالثًا : المعاني الثواني من خلال التمثيل عند عبدالقادر :

سبق أن أوضحنا أن مصطلح التمثيل هنا - يعني : الاستعارة التمثيلية عند عبدالقاهر- هو مصطلح مستقل عن الاستعارة ذلك أنها تقوم على التشبيه. أما التمثيل

فأساسه التشبيه التمثيلي، وهو مصطلح يشتمل على الاستعارة التمثيلية وعلى التشبيه التمثيلي معًا.

وقد فرق عبدالقاهر بين التشبيه والتمثيل، إذ عدَّ التشبيه «عام، والتمثيل أخص منه، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلاً»[٥٣].

أما الاستعارة التمثيلية عند جمهور البلاغيين فهي مجاز مركب فيما شبه بمعناه؛ لأن اللفظ فيها هيئة منتزعة لهيئة منتزعة[٥٤].

ولذلك يرى عصام الإسفراييني : «أن لها شرف وفضل لا يكون لغيرها» . ويقال في تعريفها : إنها اللفظ المركب المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي[٥٦].

وربما يعود السبب في هذا الاختلاف أن عبدالقاهر يرى : أن التشبيه يكون من جهة أمراً بينًا لا يحتاج في فهمه إلى تأول كتشبيه الشيء إذا استدار بالكرة، أو تشبيه اللون كتشبيه الخد بالورد، أو الصورة واللون معًا كتشبيه الثريا بعنقود العنب.

وقد يكون التشبيه من جهة الغريزة والطباع كتشبيه الرجل الشجاع بالأسد، فهذه التشبيهات بينة واضحة لا تحتاج في فهمها إلى تأول وإعمال فكر، لأن صفة المشبه تشارك صفة المشبه به.

أما التشبيه التمثيلي فلا يتم إلا بتأول وإعمال فكر، حيث يدرك عن طريق العقل ويحتاج إلى روية كتشبيه الحجة بالشمس، واللفظ كالعسل في الحلاوة ؛ لأن الصفة هنا لا تشارك المشبه به ، وإنما ينتزعها العقل من الشيء للشيء، كانتزاع الشبه للفظ من حلاوة العسل أو يكون الانتزاع من هيئة متعددة عن طريق العقل كقوله تعالى[٥٧]:

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُواْ التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَا ﴾ .(آية ٥ من سورة الجمعة).

وفيما هو آت ملخص للتشبيه سواء عند عبدالقاهر أم عند جمهور البلاغيين : [٥٨]

أولاً : عند عبدالقاهر التشبيه التمثيلي عقليٌ، سواء كان مفرداً أو مركبًا .

ثانيًا : عند السكاكي التشبيه التمثيلي مركبٌ عقلي كقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُواْ التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَا ﴾ .(آية ٥ من سورة الجمعة).

ثالثًا : عند القزويني وجمهور البلاغيين، هو مركب سواء كان حسيًا أم عقليًا أي : أدرك عن طريق العقل أو عن طريق الحواس.

أما الزمخشري فلم يفرق بين التشبيه والتمثيل، فهما عنده لفظان مترادفان، يؤديان معنى واحداً [٥٩].

وعلى هذا فالاستعارة عند عبدالقاهر تقوم على التشبيه، أما التمثيل فيقوم على التشبيه التمثيلي.

ومهما يكن من الاختلاف في مفهوم التشبيه التمثيلي فإن عبدالقاهر قد شرحه وبين أهميته وتأثيره في النفوس فقال : «واعلم أن مما اتفق عليه العقلاء أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني... كساها أبهة، وأكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من نارها، ودعا القلوب إليها واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفًا، ومحبة وشغفًا، فإن كان مدحًا كان أبهى وأفخم وأنبل في النفوس وأعظم... وإن كان ذمًا كان مسه أوجع وميسمه ألذع ... وإن كان اعتذارا كان إلى القلوب أقرب... وإن كان وعظًا كان أشفى للصدر وأدعى إلى الفكر وأبلغ في التنبيه والزجر» [٦٠].

ثم ناقش عبد القاهر محاسن التشبيه التمثيلي من خلال الأمثلة التي أوردها وانتهى إلى القول : «ومن المركوز في الطباع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه كان نيله أحلى وبالمزية كان أولى، فكان موقعه في النفس أجلى وألطف... ولذلك ضرُب به المثل لكل ما لطف موقعه ببرد الماء على الظمأ»[٦١].

ومع كل ما ذكرناه عن التشبيه التمثيلي والذي تقوم عليه الاستعارة التمثيلية، فإن مكانته البلاغية عند عبدالقاهر تتساوى مع الكناية والاستعارة في أن كل مصطلح منها له معنيان: معنى ظاهر ويتمثل في المعنى اللغوي، ومعنى خفي ويتمثل في المعاني الثواني كما سبق أن شرحناها.

وما ينطبق عند عبدالقاهر على الكناية، والاستعارة، ينطبق على التمثيل، أو الاستعارة التمثيلية، سواء من حيث جمال الصورة البلاغية، أو من حيث المعاني الثواني التي تمثل القاسم المشترك لهذه المصطلحات؛ حيث جمع بينها عبدالقاهر في مواضع كثيرة من كتابه "دلائل الإعجاز"، ومن ذلك قوله : «الكناية ، والاستعارة والتمثيل الكائن على حد الاستعارة... إذا وقع على الصواب، وعلى ما ينبغي، أوجب الفضل والمزية، فإذا قلت هو كثير رماد القدر كان له موقع وحظ من القبول لا يكون إذا قلت هو كثير القرى والضيافة، وكذا إذا قلت : رأيت أسداً كان له مزية لا تكون إذا قلت : رأيت رجلاً يشبه الأسد، ويساويه في الشجاعة، وكذلك إذا قلت : أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، كان له موقع لا يكون إذا قلت : أراك تتردد في الذي دعوتك إليه كمن يقول : أخرج ولا أخرج ، فيقدم رجلاً ويؤخر أخرى»[٦٢].

وقد بين عبدالقاهر أن التمثيل المقصود به هنا هو المجاز؛ وذلك للفرق بينه وبين التشبيه التمثيلي، فيقول : «وأما التمثيل الذي يكون مجازاً...فمثال قولك للرجل يتردد في الشيء بين فعله وتركه : أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فالأصل في هذا أراك في

ترددك كمن يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، ثم اختُصر الكلام وجُعل كأنه يقدم الرجل ويؤخرها على الحقيقة، كما في قولك رأيت أسداً، رأيت رجلاً كالأسد، ثم جُعل كأنه الأسد على الحقيقة».

ويتحدث عبدالقاهر عن ميزة الكناية والاستعارة، ثم يقيس التمثيل عليهما فيقول: «وهكذا قياس التمثيل المزيَّة أبداً في ذلك تقع في طريق إثبات المعنى دون المعنى نفسه فإذا سمعتهم يقولون: إن من شأن هذه الأجناس أن تكسب المعنى نبلاً وفضلاً، وتوجب لها شرفًا، وأن تفخمها في نفوس السامعين، وترفع أقدارها عند المخاطبين، فإنهم لا يريدون الشجاعة والقرى، أو أشباه ذلك في الكلم المفردة، إنما معاني هذه الكلم لمن تثبت له ويخبر به عنه»[٦٤].

وفي حديثه عن ترجيح الكناية والاستعارة عن الحقيقة فيقول: «وحكم التمثيل حكم الاستعارة سواء، فإذا قلت أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى فوجبت له الصورة التي يقطع معها بالتحير والتردد، كان أبلغ لا محالة من أن تجري على الظاهر»[٦٥].

وفي حديثه عن معرفة المعاني الثواني عن طريق المعقول دون طريق اللفظ فيقول: «وإذا قد عرفت أن طريق العلم للمعنى في الاستعارة والكناية معًا، المعقول، فاعلم أن حكم التمثيل في ذلك حكمهما، بل الأمر في التمثيل أظهر»[٦٦].

والحق بعد هذا فإن عبدالقاهر قد كرر المثال الخاص بالاستعارة التمثيلية «أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى» مما يدل على اهتمامه بها.

أضف إلى ذلك، فإنه ربط بين الكناية والاستعارة والتمثيل، فإذا تحدث عن واحدة منها، تحدث عنها جميعًا كما ذكرنا سابقًا، مما يدل أنها تمثل صورة بلاغية واحدة لها معنيان: معنى ظاهري له دلالة لغوية، ومعنىً باطني له دلالة بلاغية، ويتمثل في المعاني الثواني.

وينتهي بنا القول إلى أن المعاني عند عبد القاهر ، تمثل الصورة البلاغية : لكل من الكناية، والاستعارة والتمثيل، بدون تلك المعاني لا توجد صورة بلاغية ، بل تكون الكلمات مستعملة على حقيقتها .

ومهما يكن من رأي عبدالقاهر في المعاني الثواني، فإنها ظاهرة بلاغية تشمل الكثير من المباحث والمصطلحات البلاغية، وبخاصة تلك التي تخرج من مقتضى الظاهر لأغراض بلاغية : كالمجاز المرسل، وأساليب الجمل الخبرية والإنشائية، وأحوال المسند والمسند إليه، وبعض مصطلحات البديع المعنوية واللفظية.

وخلاصة القول فإن المعاني الثواني عند القاهر الجرجاني تعد مصطلحًا بلاغيًا انفرد به، ويعبر عن مدلول الكناية بأنواعها والاستعارة بأقسامها كما ذكرنا .

وقد تناول النقاد المعاصرون المعاني الثواني في إطار الجملة وبنيتها وتراكيبها ، لأنها تدخل في مدلول المعاني اللغوية ولها عندهم أكثر ن مدلول، فهي مثلاً عند الدكتور فائز الداية تعد رموزاً إشارية متصلة بالحالة الشعورية، وتعبر عن : «قيم اجتماعية وقيم فكرية»[٦٧].

وسماها الدكتور محمد مفتاح بالفاعلية المرتبطة بالدلالة المعرفية[٦٨]، وبعض النقاد سماها بثنائية المعني وبالدلالة التأويلية[٦٩]، وبعضهم أطلق عليها علم الدلالة[٧٠] . وهكذا فمدلول المعاني الثواني في النقد المعاصر ، تشمل النص الأدبي لفظًا ومعنىً.

وفي الأخير أقول : وعلى الرغم من قصرِ المعاني الثواني عند عبدالقاهر على الصورة البلاغية : في الكناية والاستعارة والتمثيل ؛ إلا أنها ظاهرة بلاغية تشمل البلاغة العربية كلها، بل وتعد خلاصة الخلاصة لها .

الهوامـــش

١ - دلائل الإعجاز للشيخ / عبدالقاهر الجرجاني، بتحقيق محمود شاكر، طبعة الخانجي، القاهرة، ص: ٢٦٢.

٢ - نفسه ، ص : ٢٦٢.

٣ - نفسه ، ص : ٢٦٣.

٤ - نفسه ، ص : ٢٦٤.

٥ - نفسه ، ص : ٢٦٧ - ٢٦٨.

٦ - نفسه ، ص : ٦٦ .

٧ - الطراز للعلوي ، ط . دار الكتب العلمية، بيروت، ١/ ٣٦٥.

٨ - انظر اللسان مادة "كني" ، طبعة دار المعارف، ٥-٣٩-٤٤.

٩ - شروح التلخيص ، ط. دار الهادي لبنان ١٩٩٢، ٤/ ٢٣٧ والمطول، طبعة أولى، تركيا، ص:٤٠٧.

١٠ - نقد الشعر لقدامة بن جعفر، بتحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجي، ط . الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨٠، ص : ١٥٧.
وانظر المثل السائر ، تحقيق د/أحمد الحوفي، ود/بدوي طبانة، ط. دار نهضة مصر، ٣/ ٥٨.

١١ - المثل السائر ٣/ ٥١، والطراز ١/ ٣٧٥.

١٢ - مفتاح العلوم للسكاكي، ط. دار الكتب العلمية، لبنان ١٩٨٣، ص: ٤٠٤-٤٠٧.

١٣ - الإيضاح للقزويني ، بتحقيق د/ محمد عبدالمنعم خفاجي، ط. الكليات الأزهرية، ٥/ ١٥٨.
وشروح التلخيص ٤/ ٢٣٧ وما بعدها .

١٤ - دلائل الإعجاز ، ص : ٣٠٦ .

١٥ - نفسه ، ص : ٧٠ .

١٦ - نفسه ، ص : ٤٣٠ .

١٧ - نفسه ، ص : ٣٠٦ .

١٨ - البرهان في علوم القرآن للزركشي ، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. دار الجيل، بيروت ١٩٨٨، ٢-٣٠٠.

١٩ - نفسه ، ص : ٢/ ٣٠٠-٣١٠.

٢٠ - دلائل الإعجاز ، ص : ٢٦٢.

٢١ - نفسه ، ص : ٤٤٣ .

٢٢ - نفسه، ص : ٤٣١ .
٢٣ - نفسه ، ص : ٧٠ .
٢٤ - نفسه ، ص : ٧٢ .
٢٥ - نفسه ، ص : ٣٠٦ .
٢٧ - نفسه ، ص : ٣٠٦ - ٣٠٧ .
٢٨ - نفسه ، ص : ٣٠٧-٣١٢.
٢٩ - مفتاح العلوم ، ص : ٤٠٤ .
٣٠ - دلائل الإعجاز ، ص : ٣١٣ .
٣١ - نفسه ، ص : ٦٧ .
٣٢ - انظر المعجم الوسيط، ط . مجمع اللغة العربية، القاهرة ، ٦٣٦/٢.
ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د/ أحمد مطلوب، ١٣٦/١.
٣٣ - راجع المطول ، ص : ٣٧٩، ومن بلاغة النظم العربي، د/ عبدالعزيز عرفه، ط. أولى ، القاهرة ١٩٨٢، ص : ١٥٥.
٣٤ - راجع شروح التخليص ، ٣/ .
٣٥ - أسرار البلاغة ، ص : ٢٩ .
٣٦ - نفسه ، ص : ٣٧٣ .
٣٧ - دلائل الإعجاز ، ص ٦٧ .
٣٨ - أسرار البلاغة ، ص : ٤٤-٤٥، وراجع من بلاغة النظم العربي، ص : ١٠٦.
٣٩ - انظر معجم المصطلحات البلاغية، ١٤٢/١.
٤٠ - راجع لهذا مفتاح العلوم للسكاكي، ص : ٣٦٩، وبغية الإيضاح ، ١٦٠/٣، ومعجم المصطلحات البلاغية ١٤٠/١-١٤١.
٤١ - أسرار البلاغة ، ص : ٤٠ -٤١ .
٤٢ - نفسه ، ص : ٢٦ .
٤٣ - دلائل الإعجاز ، ص : ٤٣١-٤٣٢.
٤٤ - نفسه، ص : ٤٣٢ .
٤٥ - نفسه، ص : ٤٣٢ .
٤٦ - نفسه، ص : ٤٣٧.
٤٧ - دلائل الإعجاز ، ص : ٤٣٩ .
٤٨ - نفسه ، ص : ٤٤٠ - ٤٤١ .

٤٩ - نفسه ، ص : ٤٤١ - ٤٤٢ .
٥٠ - نفسه، ص : ٦٤-٧٤ .
٥١ - نفسه ، ص : ٩٩ .
٥٢ - نفسه ، ص : ٧٨ .
٥٣ - أسرار البلاغة ، ص : ٨٤ .
٥٤ - أنظر شروح التلخيص ، ١٤١/٤، وما بعدها والمطول للتفتازاني، ص : ٣٨.
٥٥ - الأطول ، لعصام الإسفراييني، ط. أولى تركيا، ص : ١٥٧.
٥٦ - انظر من بلاغة النظم العربي، د/ عبد العزيز عرفة، ص : ٢١٥.
والبيان في ضوء أساليب القرآن ، د/ عبدالفتاح لاشين، ط. دار المعارف، مصر، ص: ١٨٦، ومعجم المصطلحات البلاغية، د/أحمد مطلوب، ص: ١٥٦/١.
٥٧ - أسرار البلاغة، ص : ٨١ -٨٤ .
٥٨ - انظر أسرار البلاغة ، ص : ٨٨ - ٩٠ ، ومفتاح العلوم ، ص : ٣٤٦ ، والتلخيص ، ص: ٢٦٠، وشروح التلخيص ، ص : ٤٣٢/٣-٤٣٤.
٥٩ - الكشاف، ط. مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر ، ص : ٢١٣/١.
وانظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ط. دار الفكر العربي، ص : ٤٠٢.
٦٠ - أسرار البلاغة ، ص : ١٠١- ١٠٢.
٦١ - نفسه ، ص : ١٢٦.
٦٢ - دلائل الإعجاز ، ص : ٤٣٠ .
٦٣ - نفسه ، ص : ٦٩ .
٦٤ - نفسه، ص : ٧١ .
٦٥ - نفسه، ص : ٧٣ .
٦٦ - نفسه ، ص : ٤٤٠ .
٦٧ - جماليات الأسلوب ، ط. دار الفكر المعاصر ، ط. ثانية ١٩٩٠م، ص : ١٩٠.
٦٨ - تحليل الخطاب الشعري، د/ محمد مفتاح ، ط. المركز الثقافي العربي، المغرب ١٩٨٦م، ص:٨٤.
٦٩ - المشاكلة والاختلاف ، ط. المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٤م، ص : ٢٠ .
٧٠ - اللغة الثانية، فاضل ثامر، ط. المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٤م، ص : ١٦٣ وما بعدها .

المصادر والمراجع

١ - أسرار البلاغة .
٢ - الأطوال ، لعصام الاسفراييني ، ط . أولى ، تركيا .
٣ - الإيضاح للقزويني .بتحيقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي ، ط . الكليات الأزهر .القاهرة.
٤ - البرهان في علوم القرآن ، للزركشي ، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم ، ط. دار الجيل ، بيروت، ١٩٨٨م.
٥ - دلائل الإعجاز .للشيخ عبد القاهر الجرجاني بتحقيق محمود شاكر ، ط. الخانجي القاهرة .
٦ - شروح التلخيص . ط .أولى، القاهرة .
٧ - الطراز العلوي .ط. دار الكتب العلمية ، بيروت . ط، أولى.
٨ - القرآن الكريم .
٩ - الكشاف للزمخشري .ط. مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة .
١٠ - لسان العرب . ط . دار المعارف القاهرة .
١١ - المثل السائر .الابن الأثير ، ط. نهضة مصر، القاهرة .
١٢ - المطول . للتفتاز . ط. اولى ، تركيا .
١٣ - معجم المصطلحات البلاغية . د. أحمد مطلوب . ط . أولى .
١٤ - المعجم الوسيط . ط. أولى . القاهرة .
١٥ - مفتاح العلوم للسكاكي .ط. دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٣م.
١٦ - نقد الشعر لقدامة بن جعفر . بتحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي، ط. القاهرة ، ١٩٨٠م.

■ ■ ■